المبحث الخامس

الإقليمية وإقليم المدن

قسّم «حمدان» كتابه الرائد «جغرافية المدن»[١] الي أربعة أبواب خصّص رابعها لإيكولوجية المدن الإقليمية في فصلين عنوانيهما: إقليم المدينة والإقليمية والمدن، وفي مقدمة الطبعة الأولي من كتابه أقر حمدان بأن جغرافية المدن بدأت من الاهتمامات «الإقليمية» العامة أولا مثلما «بدأ علم الجغرافيا ذاته من الإقليم»[٢].

وفي المرحلة التكوينية من مراحل قصة جغرافية المدن (وهي إحدى مراحلها الثلاث بين مرحلتي: النشأة والنضج) ذكر حمدان أن «فلير Flure» كان صاحب أول محاولة لتصنيف أنماط وتحديد أقاليم لمورفولوجية المدينة الداخلية في غرب أوربا في عام ١٩٢٠، فكان له الفضل في تغذية الجانب المهمل من دراسة جغرافية المدن ألا وهو جغرافية المدن الإقليمية، كما أضاف «ماكنزي .Mckenzie,R» في كتابه The Metropolitan Community إضافة مهمة للدراسات المدنية الإقليمية[٣].

ولقد بدأت جغرافية المدن ـ في رأي حمدان ـ كعلم ألماني خالص مثلما بدأ علم اجتماع المدن كعلم أمريكي بكل معني الكلمة، وقد درست جغرافية المدن المدينة من الداخل، إلا أن علم اجتماع المدن هو الذي نفذ الي قلبها وحلل تركيبه، وأعطي الدارسة شكلها ومنهجها الأول والأخير، ألا وهو فكرة المناطق الطبيعية (الشكل) والنظرية الحلقية (المنهج) ولم يكن ذلك المنهج في الحقيقة سوى الإطار الإقليمي للمدن[٤]. كذلك بدأ الجغرافيون دراساتهم للمدن من الأرض ـ الإقليم العام لمنطقة المدينة ـ فاهتموا بالموقع والحجم والنمو والوظائف، لكن الاجتماعيين بدأوا من الناس، أي من مجتمع المدينة الذي وجدوه بطبيعته يتنضد في إطارات صغرى

(١)جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ط١ ـ القاهرة ـ بدون ناشر ـ د.ت ، وله طبعة ثانية هي : جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ط٢ ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ .

(٢)جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ط١ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢ .

(٣)المرجع السابق ـ ص ٦.

(٤)المرجع السابق ـ ص ٨.

ولكنها مساحية «إطارات إقليمية» [١].

وفي مرحلة النضج عرفت جغرافية المدن خمس خصائص - يوضح حمدان - كانت رابعتها دخول هذه الجغرافية باباً جديداً هو: إقليم المدينة City Region والمجال المدني Urban Field وما ارتبط به من دراسة الإقليمية Regionalism أو «الريجيونياليزم» وفي هذا المجال أضافت جغرافية المدن إلى أنواع الأقاليم في الجغرافيا إقليما جديدا أصبح علي جانب كبير من الأهمية العلمية هو إقليم المدينة [٢]. ويعتبر كتاب الاقتصادي الشهير أوجست لوش« .Losch,A» عن اقتصاديات التوطن [٣] بحثاً تركيبياً في إقليم المدينة، وقد قاد الاهتمام بإقليم المدينة والإقليمية الي دخول جغرافية المدن المجال التطبيقي، فكانت أول من دخلها من فروع الجغرافيا رغم كونها أحدثها نشأة.

وفي تعريفه لجغرافية المدن اعترض حمدان علي تعريفها بأنها علم توزيع الظاهرات المُدنية علي سطح الأرض، فالجغرافي - في نظره - وإن بدأ من التوزيع والنمط الخاصين بالمدن، إلا أنهما بالنسبة إليه وسيلة لفهم شخصية الإقليم المُدني لا غاية [٤]، بينما كان اعتراضه علي تعريف جغرافية المدن بأنها علم العلاقة بين الظاهرات المُدنية وغيرها من الظاهرات الطبيعية والبشرية أنه إذا كانت العلاقات هي الهدف فإن دراستها تؤدي الى دراسة القوى الاجتماعية والتوازن أو الصراع بين المجموعات الاجتماعية، ويصبح هدفها هو المجتمع وتنظيمه لا إقليم المدينة كظاهرة جغرافية [٥].

وفي إجابته عن سؤاله: ما هي جغرافية المدن؟ أكّد حمدان علي ما سبق ذكره في أعماله

(١) المرجع السابق - ص ١١.

(٢) المرجع السابق - ص ١٣، و: أحمد عبد العال - دراسات في الفكر الجغرافي - مرجع سبق ذكره - ص ٣٣.

(3) Losch .August, Economics of Location, A Pioneer Book in the Relation Between Economic Goods and Geography,Trans.,Haven,1954.

(٤) جمال حمدان - جغرافية المدن - ط١ - مرجع سبق ذكره - ص ١٥.

(٥) المرجع السابق - ص ١٩.

السابقة وهو أن الجغرافي عليه أن يطالع سطح الأرض المتفارق بطبيعته من مكان لآخر ليستشف منه «كل وحدة تباينية ذات شخصية متميزة عمن سواها» فيحدد معالمها ومحتوياتها ومضمونها، ويعلل مقومات هذه الشخصية، أي هي علم الأقاليم: علم الكورولوجيا Chorology، ودور جغرافيّ المدن في هذا أن يتقصّى التباين الأرضي كما يأتي ويتحدد من ناحية المدن، أي مساهمة الحقيقة المُدنية في إظهار التباين الأرضي وتميز الأقاليم، فهو يسعى وراء الشخصيات المُدنية الإقليمية [1].

وقد تكون المساحة الخاضعة للدراسة هي رقعة المدينة وحدها للتعرف علي الشخصيات المحلية داخلها، وقد تكون منطقة كبيرة المساحة تتعدد فيها المدن فيكون التعرف هنا علي أقاليم الشخصية أو الشخصيات المُدنية داخلها، كما تستشف من أنماط وأنواع الشخصيات المحلية داخل كل مدينة فيها من ناحية، ومن وضعها الخاص في أجزاء المنطقة المختلفة من ناحية أخرى، وهذا قد يأتي من جانب طبيعة علاقة المدينة بريفها المحيط أو من صورة وكثافة انتشار وتوزيع وتوقيع هذه المدن في الإقليم [2].

وقد أكد «حمدان» أفكاره السابقة في كتابه عن المدينة العربية الذي اعتبره «محاولة أولى لعمل مسح إقليمي للمدينة العربية في إطار منهجي محدد وفي حدود معينة» لا تتعرض لجغرافية المدن الداخلية، وإنما تقصر نفسها علي الدراسة الإقليمية الخارجية. ولهذا جاء الباب الثاني من الكتاب «إقليمياً»...تدور فصوله مع قطاعات شبكة المدن العربية كل حسب وحداته الجغرافية الطبيعية دون إغفال للوحدات السياسية[3].

والشخصية الإقليمية كما تساهم في تحديدها وتشكيلها المدينة هي هدف جغرافيّ المدن، فالمدينة بتنوع تباينها وتمايزها الداخلي وبنوع تباينها وتمايزها في وضعيتها

(١)المرجع السابق ـ المكان ذاته.

(٢)المرجع السابق ـ المكان ذاته.

(٣)جمال حمدان ـ المدينة العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ ص ٢.

وعلاقاتها في الإقليم الذي توجد فيه، قد تكون مفتاحاً لشخصية الإقليم، فالتركيب الداخلي والتباين المكاني داخل المدينة الإسلامية يختلف عنه في المدينة الأمريكية أو مدينة غرب أوربا، وهو في مدينة العصور الوسطى يختلف عنه في المدينة المعاصرة، وهذا التباين المكاني المُدني يمكن أن يتخذ في كل حالة أساساً لاستقراء أقاليم جغرافية متمايزة، ومجموع المدن في منطقة ما، كما يتألف من صورة أحجامه وأبعاده وعلاقاته يمثل أساساً متغايراً من منطقة لأخرى، أي عنصرا من عناصر الشخصية الإقليمية، بحيث يمكن أن يتخذ مقياساً جزئياً لتقصي أقاليم جغرافية متمايزة [1].

وفي تقديمه لمقال «لابلاش» المشهور عن الشخصية الجغرافية لفرنسا ضغط «فلير» علي الفارق في صورة مجتمع المدن بين فرنسا وانجلترا كعنصر مفارق مميز للشخصية الإقليمية لكل منهما، شخصية فرنسا المدنية بخصائصها المتمثلة في مركزية باريس الطاغية وندرة الأحجام الكبيرة وسيادة الأحجام المتواضعة، وشخصية انجلترا المدنية بخصائصها المتمثلة في تعدد المدن الضخمة ـ رغم ضخامة لندن، فضلا عن الفارق العام في درجة التمدين، ومن ثم التفارق في التطور الصناعي والأساس الجغرافي والتاريخي للزراعة، ويضيف حمدان مثالًا آخر عندما قارن بين هولندا التجارية ذات العدد الأكبر من الأحجام الضخمة، وبين بلجيكا الصناعية ذات العدد الأكبر من المدن المتوسطة والصغيرة، كانعكاس وصورة لفروق في الشخصية الإقليمية [2].

والتباين الإقليمي المُدني ـ كما رأى حمدان ـ يساهم في التباين الإقليمي العام، وقد يعبر عن شخصية الإقليم، وهو طابع مادي ملموس لشخصية الإقليم وروح المكان، وقد يكون هذا التباين المُدني ألصق بتحديد الأقاليم البشرية والحضارية، ولكنه أيضاً

(١) جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ط١ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢١ و: أحمد محمد عبد العال ـ الأبعاد المكانية للخصائص الوظيفية للمدن المصرية ـ مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ .

(٢) جمال حمدان ـ جغرافية المدن ـ ط١ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٠ .

كشّاف للنواحي الطبيعية أحيانا، وجغرافية المدن باختصار هي التباين الأرضي المُدني.هي كورولوجية المدن.هي رسم أقاليم المدن المتمايزة، أي التعرف علي الشخصيات الإقليمية المُدنيّة، ولما كانت المدينة ظاهرة اصطناعية من صنع الحضارة، فأقاليم المدن هي في النهاية أقاليم حضارية أو أقاليم الحضارة المُدنيّة [1].

وهكذا اعتنق «حمدان» التعريف الكورولوجي لجغرافية المدن ولكنه تساءل: هل هذا التعريف يضمن للمادة استقلالها الخارجي ووحدتها الداخلية؟ وإلى أي حدٍ يختلف عن التعريفين: التوزيعيّ والإيكولوجيّ؟ وفي إجابته عن هذا التساؤل أقر حمدان بأن قلب التعريف الكورولوجيّ هو المنطقة المُدنية ذات الشخصية المُدنية المتفرّدة التى مثلما تتركب من عناصر مميزة فإنها ذات مغزى ودلالة من وجهة نظر تفرد الشخصية والتباين، وهذه العناصر تتمثل إما في النمط (التوزيع) أو العملية (العلاقة الإيكولوجية). ولهذا تعتمد كورولوجية المدن علي توزيع الظاهرات المدنية وعلى إيكولوجية المدن في تفسير هذه الظاهرات وتقويمها [2].

والتوزيع والعلاقة لحمة الإقليم وسداه، ولكن كل منهما ليس أكثر من مادة خام تشكل في صورة وروح جديدة روح الإقليم المُدنيّ والشخصية الإقليمية، فكورولوجية المدن ليست توزيع الحقيقة المدنية ولا هي إيكولوجية المدن، كما أنها ليست مجموعهما معاً، والتركيز دائما علي الإقليم لا علي الظاهرة التوزيعية التى تملأ هذا الإقليم أو العلاقة الإيكولوجية التى تسوده، التركيز علي شخصية الإقليم كما تتحدد بتلك الظاهرة أو العلاقة [3].

ورغم اعتراف حمدان بوجود اختلافات مذهبية منهجية داخل التعريف

(١)المرجع السابق- ص ٢١.

(٢)المرجع السابق- المكان ذاته.

(٣)المرجع السابق- ص ٢٢.

الكورولوجي حول مفهوم الإقليم ومضمونه (أساس انتخاب الظاهرات) وتبلور هذه الاختلافات في مدرستين هما المدرسة الأساسية «مدرسة الإقليم» بالمعنى المعروف والتى تدرس كل ظاهرة في المدينة مادية وغير مادية لها دلالة تباينية وتمييزية في المكان، ومدرسة «اللاندسكيب» التى تفهم الجغرافيا علي أنها علم الأشياء لا الإنسان، والإقليم علي أنه الظاهرة المرئية الملموسة بالحواس أي المادية فقط، إلا أن حمدان لم ير مفراً من اعتماد التعريف الكورولوجي لجغرافية المدن، وإن أضاف إليه بذكاء مضمون التعريفين التوزيعي والإيكولوجى [1] فمن الخير أن نقبل كل أساس تباينيّ ماديّ وغير ماديّ له مغزى معقول في تشخيص الإقليم المُدنيّ وتحديد شخصيته، فالإقليم هو الإناء الذي يصب فيه المجتمع ولا مفر من أن يتشكل به بدرجة أو بأخرى [2].

(١)المرجع السابق- ص ٢٤.

(٢)المرجع السابق- ص ٢٨.